

نحن وفرنسا

باكون وشامتون

للأستاذ نجيب محمد البهيتي

قرأت مقال صديقي الأستاذ « عبد المنعم خلاف » الأخير في مجلة « الرسالة » . ولقد حمدت له انفعاله لما قاماء لإخوان لنا في الدين وأقرباء منا في الدم ؛ ولكنني أخذت عليه أن هذا الانفعال قد ساقه إلى نوع من الشبهة المؤذية ، وإلى نظرة ظالمة في الحكم على أمة لم تبد عيوبها ولم تتضح زلاتها إلا بعد أن حطمتها القوة .

لا مكابرة يا عبد المنعم في أن الحكم الفرنسي في المستعمرات كان صارماً ، ولا ريب في أن أسلوب حكام المستعمرات في القضاء على كل ما يمكن أن يصبح بذرة مبشرة بالنمو المؤدى للانفصال عن جسم الامبراطورية — كان هداماً ، وأن محاولات إدماج الممتلكات قد تغلظت إلى الروح بسد وضع اليد على الجسد ، ولكنك نسيت أشياء كثيرة أخرى ، نسيت أن الساسة ليسوا هم الأمة ، وإن كانوا يملكون دائماً باسمها ، وأن مجموع المحكومين لا يصل إليهم كثير من تفاسيل وسائل الحكم ، وما يصلهم منها يصلهم ممزوجاً بالدعاية ، مقروناً بأسباب فيها كثير من إسدال ستار صفيق على الحقائق التي يعرفها الساسة ولا يعرفها غيرهم

فهذه الأساليب في الحكم لا تمثل الأمة الفرنسية، ولو خوطبت فيها لأبدى كثير من الناس سخطهم ونفورهم منها ؛ ولقد عاشرت الفرنسيين عن كثب وعرفت فيهم المغالاة في تقدير حرية الرأي ، ورأيهم يسممون بأذائهم ما يقال في ذمهم في كثير من التسامح وسعة الصدر . ولو علمت أن أبناء أحط المستعمرات الفرنسية ياملون في فرنسا نفسها معاملة الفرنسيين أنفسهم ، يستنون معهم أمام القانون ، كما يساوونهم في المعاملة وفي التقدير الذي يلقونه من احترام الناس أو احتقارهم في غير تفرق بين الألوان والأجناس ؛ لو علمت هذا لمجيت ولأدركت شيئاً من

الأشياء التي تجعل كل أجنبي ينزل فرنسا يشعر بأن هذا البلد وطن ثان له . ولو عرفت بمد هذا أن فرنسا كانت مأوى جميع اللاجئين السياسيين من كل صنف ومن كل لون ، وأن باريس وحدها كانت تؤوى نحو مليون من غير الفرنسيين زاد عبيك ، ولأدركت بعض الأسباب التي تدفع بمن ينتصرون لليوم لفرنسا إلى الانتصار لها على الرغم مما يملكون عن مساوي حكمها في مستعمراتها ، لأنهم يعرفون أن هذا النوع من الحكم إنما يسأل عنه فريق من أبنائها لم يستطيعوا أن يطبقوا هذه المناهج من الحكم على الأجانب في أرضهم لما يعرفونه من نفور أبنائها بطبعهم من الاستبداد

والحكم في كل أمة من الأمم يكاد يتماثل عليه أبناء طبقة من الطبقات في الجيل الواحد حتى ليصبح أشبه شيء بالحرفة تصطنعها هذه الفئة وتعرف بها فلا تكاد تخرج عنها ، وتجدها تتوارث تقاليداً حتى ليصبح تطبيق هذه المناهج والقواعد أشبه بدورة ميكانيكية تؤخذ بها الأجيال المتعاقبة في كثير من أدوار التاريخ . وليس لك أن تطالب للشعوب في مجرعهما بالنظر في أعمال الحكام ، ذلك النظر الفاحص للقائم على الدرس ، لأن دون هذه الدراسة العامة ما يشبه الاستحالة العملية ؛ وتيار الحياة البشرية ، ولقدرة المتاح لكل فرد من القدرة على تحصيل عيشه وعلمه الأشياء يخضع دائماً لحاجاته ومواهبه ؛ فليس لإنسان أن يسأل أمة من الأمم مما بلغت ثقافة أبنائها ؛ لماذا لم تعرفوا عن حكم حكامكم لكم ولتبركم ما يجعلكم في حل من إقصائهم عن الحكم إذا ما أساءوا السيرة لأنهم إنما يملكون الأشياء في نطاق وسائل تحصيل الأخبار المتاح لهم ؟

ومع هذا كله فإني لست أبرى الفرنسيين من أخطاء الحكم التي اقترفها حكامهم في الأراضي التي نزلوها ، ولست أعصم هذه الأمة من الزلل، ولكنني أتحدث الآن وفي نفس ذكرى ماثلة لذلك التسامح الذي كنت أشهده بينهم في كل نواحي الحياة ، وذلك النفور النائر الذي كنت أراه منهم حين يحس أحدهم ظمناً يقع عليه أو على غيره . ولا زلت أشعر بتلك الطيبة للقياسة فيهم . لا زلت أذكر هذا وأنظر على ضوئه إلى الأشياء، ثم أحكم وإن كنت لا أزال أدم في جانب من نفسي عجزاً للضعف البشري ، ولتلك

الحاسة الحيوانية التي تأخذ بخناق الإنسان مهما ارتقى ومهما سما حين تهيج بنفسه غريزة الإحراز أو غريزة التملك

فهؤلاء القوم في استثمارهم ، وفي محاولاتهم الإدماج المادى والروحى للأمم التي كانوا يحكمونها ، إنما كانوا مقلدين لتيرم ، وإن كانوا أفرطوا في التقليد . كانوا يقلدون في هذا أمة غريزة علينا . ولا أظنك تجهل من أقصد ؛ فإن العرب قد طووا تحت جناح الدين كل الأمم التي حكموها ، وكان الدين يأمرهم بهذا ويأمرهم بالتسوية بين أبنائه . ولكن عوامل الضعف للبشرى والدين إنما نزل تهذيبها أخنت تقوى على الأيام فاستيقظت المصيبة ، وانبعثت للفوارق الجنسية ، رغم ما سعى إليه الدين من إزالتها . وعاد البشر بشرًا يمزقون عنهم ذلك للثوب الملائكى الذى رسمه لهم المثل الأعلى للدين الكريم . وانتقلت تلك الحياة الرتيبة التي كان يحياها المسلمون إلى حياة مضطربة صاخبة تطاخن فيها الأجتناس تطااحت أذى إلى انحطام الأمويين أولاً ثم البرامكة وغيرهم بعد ذلك . لا أريد أن أطيل في هذا فقد تعلم منه ما أعلم ، وإنما ذكرت لك ما ذكرت عن طريق المثل . فالبشر هم للبشر ؛ وما الأديان وما تلك المدينيات إلا خطوات في طريق تقدم الإنسان الخلقى والتالى يحقق كل منها على الأيام قدراً متفاوت قوة وضعفاً ، ولكنه من غير شك خطوة في طريق السكال المجهول الذى تشرئب إليه الإنسانية وتطمح إلى بلوغه يوماً

ولو كنا نحن الحاكمين لما حكمه للفرنسيين لما كنا خيراً منهم ، فإن مبدأ حكم الأمم للأمم في ذاته مازق يجر إلى مآزق . لذلك قد يكون من الخير أن تترك هذه الناحية من نواحي أخلاق الأمم ، وهذا الوجه من وجوه مدينتها ، لأنهم يتساوون فيه جميعاً ، إلى غيره من صور المدنية لنعلم كم تركت هذه الأمة في تراث البشرية ، وكما رسمت لها عن طريقى النظر والعمل من سبل لبلوغ غاياتها من السكال والمثل

ويظهر أننى لست في هذا مبتدعاً ولا مبتكراً ، ولكنه الطريق للفطرى الذى يندفع إليه كل الناس بثرأزم في الحكم على الأمم التي تركت أثراً في التاريخ . وليس أدل عليه من ذلك الشعور العميق من الحزن للقائم الذى أحس به الناس حين كانوا

يقراءون كل يوم خبراً عما كان ينزل بفرنسا . ولم يغم بهذه الحركة الشائعة وهي الحملة على فرنسا إلا قوم بخيل إلى يا عبد المنعم أنهم لم يتبينوا حق للتبيين ما يجرى في نفوسهم ، ويخيل إلى أن بمضهم لم يكتب ما كتب مخلصاً لفكرة أو مؤمناً بحقيقة

إن الفرنسيين قدير قادوا الأمم قيادة عملية إلى تحقيق قسط ضخم من الرخاء النفسى الذى تستمتع به الإنسانية اليوم . ولم تكن الثورة الفرنسية التي سالت فيها دماء فرنسا بغزارة إلا إحدى المحاولات الجبارة لدفع طبقة من الطبقات إلى الاعتراف بحقوق الإنسان ، بمد أن عاش غالب البشر عبداً يلهو أفلهم بالأم أكثرهم ، ويسخر مجهوداتهم لترفيه . وقد تكون هذه النعمة التي تستمتع بها أنت وأستمع بها أنا من الحياة والتفكير الحر اليوم أترأ من آثار جهادهم ونضالهم . فهلا رأيت في هذا شيئاً يسيل من عينيك دمة حرى على نكبتهم ؟

هل ترى لأمة أخرى في التاريخ الحديث مثل هذا الفضل ؟ إن الإنجليز كانوا يستمتعون قبل الفرنسيين بنوع من الحكم المستورى الحر لم تستمتع به أمة أخرى ، وقد ثاروا على ملوكهم قبل الثورة الفرنسية صرات حتى استخلصوا من بين أنيابهم حقوقهم ، فهل سمعت عنهم قبل الثورة الفرنسية أنهم طالبوا الأمم غير أمته بهذه الحقوق المقدسة ؟ لم تسمع لهم في هذا صوتاً ، ولكن الفرنسيين يوم حصلوا على هذه الحقوق قاموا يدهون بها ويشرون ويضعون ، وكأنى يسيل دماهم بفيض على الدنيا فيوقظ النفوس الراقدة ، وينبه الأمم إلى حقوقها

هذا شيء من تراث النفس الفرنسية ؛ أما ثمرات عبقريتها في حضارتنا السادة فقد تعلمها خيراً منى . فتقدم الإنسان الآلى قام بقسط من خلقه العقل الفرنسى ؛ ورقى الطب كان أكثره على أيدي الفرنسيين ، وتلك للثروة المائلة من الإنتاج الأدبى الرقيق هى من ثمار العقل الفرنسى

كم وددت لو أتيح لكل من هؤلاء الشامتين بفرنسا أن يحيا فيها زمناً لينظر كيف يعمل للناس في صمت ، وكيف يعملون كالنحل دائبين ، كأنما للعمل الدائم الدائب فيهم موهبة مخلوقة وغريزة متوارثة . لو رأيت هذا مثلى لأدركت حقاً أن